دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان: الإحصاء و الأدب
المصدر: مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية بالجديدة
الناشر: جامعة شعيب الدكالى - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي: فوزي، محمد
المجلد/العدد: ع8,9
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 2004
الصفحات: 131 - 140
رقم MD: 787325
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: AraBase
مواضيع: علم الإحصاء، الدراسات الأدبية، تحليل النصوص، النصوص الأدبية
رابط: http://search.mandumah.com/Record/787325

© 2020 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الإحصاء والأدب

محمد فوزي
كلية الآداب، الجديدة

عندما نتحدث عن علاقة الأدب بالعمل الإحصائي، نتحدث بالضرورة عن علاقة هذا الأدب بالرياضيات، وهي إشكالية تبدو للوهلة الأولى على شكل مفارقة تدعو إلى طرح السؤال التالي : ما نوع الصلة التي يمكن أن تجمع بين الأدب كنشاط فني إبداعي مؤسس على اللغة الانزياحية والتخييل وبين الرياضيات كعلم قائم على قواعد رقمية مفرغة من كل دلالة أو محتوى تخييلي ؟.

مما لا شك فيه أن الرد على هذا السؤال يندرج ضمن دائرة المنهج وقضيته في الحقل الأدبي، وهي إشكالية قديمة جديدة تعود في كل الأحوال إلى كون المادة الأدبية مادة مرنة بقدر ما هي معقدة وعصية، وعنصر التعقيد فيها يجعل من غير الممكن الحديث عن إمكانية دراستها بمنهج واحد، فالمادة الأدبية قابلة للاستفادة بدرجات متفاوتة من مختلف المناهج بل ومن مختلف العلوم كعلم النفس والاجتماع والانتروبولوجيا... وإذا اقتصرنا على الجانب الأدبي المحض وجدنا أن العلوم المتصلة به كالنحو والبلاغة واللسانيات والعروض استخدمت كأدوات في تحليل النصوص مما يدل على أن النص الدبي كيان مرن يستطيع أن يشب عن الطوق المنهجي أو الزمني مما يكسبه شكلا جديدا مع كل قراءة جديدة.

إن كل نظرة إلى صلة الأدب بمختلف المناهج أو العلوم سواء منها الإنسانية أو التجريبية أو اللغوية التي لها صلة أصيلة وتقليدية بالمجال الأدبي تدفع إلى الاقتناع بأن

الأدب أفاد من حقول قريبة أو بعيدة منه حيث أتاحت هذه الأخيرة فك جوانب من غموض الظاهرة الأدبية وكشف دلالاتها المستترة، ومع ذلك فإن الأثر الأدبي لا يصل إلى درجة الاستهلاك النهائي فهو غير محصور بزمان أو مكان فالمعلقات وشعر المتنبي وأبي تمام وغير ذلك من التراث الإنساني عند غير العرب كالإلياذة والأوديسا والكوميديا الإلهية ما فتئت قابلة لأن تخضع لمبضع التحليل وما فتئت تجدد نفسها مع كل تحليل، فالأثر الأدبي كيان متحرر لا يقبل الحجر أو الوصاية ولا يمكن لمنهج معين أن يستأثر به فلا وجود للمطلق في حياض العلم (1).

لكن كيف يمكن لأثر أدبي أن يفيد من طريقة الإحصاء وهي فرع من علم الرياضيات ؟.

إن الإحصاء ليس منهجا بل هو أداة أو طريقة يمكن أن تأخذ مكانا لها ضمن منهج أوسع واشمل ويمكن للإحصاء أن يقدم لتحليل ما، ثم إن كونه ترجمة للنص من الدال اللغوي إلى الدال العددي لا يعني بالضرورة إقصاء المحلل وحصر دوره في العد ورسم الجداول وتسطير البيانات بل إنه مطالب بقراءة النتائج والمعطيات وتفسيرها تفسيرا هو في النهاية أدبي. على أنه ينأى بكل تحليل قدر الإمكان عن الاعتباطية والتعسف لأن في لغة الأرقام عند الاستناد إلى معطياتها اقترابا من الموضوعية والدقـــة، من شأنها تعزيز كل نتيجة في القراءة أو التحليل بقوة تقترب كثيرا من الثبوتية. وإذ نقول إنها تقترب فقط منها فلأنها لا تعادل تلك الثبوتية التي في علوم الاقتصاد مثلا لأن جوهر الدراسة في هذا العلم لا تخرج في كل مراحلها عن دائرة الحقائق والواقع بينما في الأدب تظل مطوقة في النهاية بالطابع التخييلي للأدب والخصائص الانزياحية للغة من جهة ثم بطابع التأويل عند القراءة بالنسبة للمحلل أو الدارس.

لقد انتشر علم الإحصاء ابتداء من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر فترة ازدهار النظريات الاقتصادية والعلمية وذلك على يد أعلام كبار من أمثال " برنولي BERNOLI و" كتليه ــ Quetlef " و " انجليا ــ Englia " و " بويز ــ Boys " وظل في تلك الفترة مرتبطا بعلوم الاقتصاد إلى أن أخذ طريقه في ما بعد إلى العلوم التربوية والاجتماعية والسياسية ثم إلى الدراسات الأدبية التي غدا من غير الممكن أن تبقى في منأى عن الاستعانة بأسلوب الإحصاء. وما زالت الحاجة ملحة إلى هذا الأسلوب في وقت دخل فيه العالم عصر التقنيات والبرمجة الحاسوبية، فأمكن للحقل الأدبي تخزين المعطيات وتصنيفها ما دامت " الأساليب الإحصائية هي منهاج وطريقة يمكن الاعتماد عليها في مختلف الحقول العلمية "(2) يقول الدكتور سعد مصلوح " وقد أدرك الباحثون على اختلاف تخصصاتهم أن استعانة أي منهم بالإحصاء لا يلزم عنه بالضرورة أن يكون متخصصا فيه فالتعاون بين العلوم في حل المشكلات اصبح ضرورة لا محيد عنها في العلم " (3).

وفي ماله صلة بالدراسات الأدبية وفي ظل شيوع الأسلوب الإحصائي. نشير إلى محاولات قيمة وجريئة قام بها باحثون عرب باستعمال النظم الحاسوبية خاصة موسيقى الشعر باعتبار مناسبة هذا الحقل الواضحة للعمل الإحصائي والتصنيفي وقد كان محمد طارق الكاتب في كتابه " موازين الشعر العربي باستخدام الأرقام الثنائية " صاحب أول محاولة لإدخال الشعر العربي إلى مختبر الرياضيات سعى فيه إلى إلغاء عمل الذاكرة كما في عروض الخليل وإحلال الجداول الحسابية محلها منطلقا من أن أوزان الخليل مؤسسة على التفعيلات حيث يتوالى المتحرك والساكن وفق توال محسوب بينما في الرياضيات ما يعرف بالأرقام الثنائية التي يمكن بواسطتها تمثيل أي عدد بالرقمين صفر وواحد مما

يمكن من تمثيل المتحرك بالصفر والساكن بالواحد وينتقل إلى تعريف الأرقام الثنائية التي تعتمد النظام الثنائي (Base 2) بدل النظام العشري ويعطي مثالا تصنيفيا لذلك بالعدد : 233 في النظام العشري والذي يعادله في النظام الثنائي (11101001) ويخلص إلى أن فعولن مثلا تساوي : (10100) ومفاعيلن تساوي (1010100). وإذا كانت تفعيلة فعولن يعادلها في الأرقام العشرية : 24 ومفاعيلن يعادلها : 242 فإن وزن الطويل يغدو هو : (24 242 24 242) مرتين (4).

وإذا لم نحاسب محمد طارق الكاتب عن الثغرات التي يمكن أن تعترض محاولته فإنه على الأقل أفلح في إثبات قابلية الشعر العربي لدخول أنظمة الحاسوب.

ولعل هذا الإفلاح كان وراء محاولة كما أبو ديب الذي نوه بمحمد طارق الكاتب وقدم سنة 1972 اقتراحا بديلا للعروض الخليلي في طريقة رقمية سعى فيها اختزال النظام للخليل مؤسسا نظريته على وصف البحور كلها بوحدتين إيقاعيتين هما فعولن وفاعلن منبها إلى أن فعولن هي فاعلن إذا تم قلبها مما يجيز الاعتماد على فاعلن فقط أي أن هاتين الوحدتين يمكن في النهاية أن تتحللا إلى نواتين إيقاعيتين أعمق جذرية هما : علن وفا اللتان سماهما نواة إيقاعية وأطلق على التشكيل الناتج من تركيبها " تشكيلا إيقاعيا "، ويعطي أبو ديب للنوى الإيقاعية قيما عددية تمثل مرتبتها في السياق التتابعي على النحو التالي :

فا	علن	فا	علن	فا	علن	فا	علن	فا	علن	فا	علن
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12
علن	فا	علن	فا	علن	فا	علن	فا	علن	فا	علن	فا
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12

ويقتضي هذا أن يكون الطويل على التشكيل الرقمي التالي :

علن	فا	علن	فا	فا	علن	فا	علن	فا	علن	فا
0//	0/	0//	0/	0/	0//	0/	0//	0/	0//	0/

ويعطي قيما عددية للنوى كالآتي :

1 = 0/

2 = 0//

3 = 0///

وهو بهذا يمهد لإعطاء قيم رياضية للبحور مستندا إلى أن التشكيل العددي للطويل إذا وزع على النموذج الذي تقدمه القيم العددية للنوى وجمعنا عدد هذه القيم تحصل لنا رقم تمثيلي لوزن الطويل هو : 3،4 / 3،4. (5)

ويعد الباحث المصري أحمد مستجير من ذوي الاجتهاد في مجال إدخال علم العروض لمجال الرياضيات وذلك في محاولتين << في بحور الشعر الأدلة الرقمية لبحور الشعر العربي >>1977 << ومدخل رلياضي إلى عروض الشعر العربي >> 1996

بتحويل التفعيلات العروضية إلى معادلات رقمية فاتحا الباب في المستقبل للتوصل إلى ضبط نظام لإيقاع الشعر ضمن نظام رياضـــي موحـــد. (6)

ولعل الذي أسس أول صلة بين الأدب والإحصاء في التراث العربي هو الخليل ابن أحمد الفراهيدي الذي بنى عمله على تصور رياضي دقيق يمكن رصده إجمالا ضمن ثلاث مستويات :

1- استفادة الخليل من نظرية التبادل والتوافق التي كانت شائعة زمانه في علم الحساب وهي الطريقة التي استعان بها في تصنيفه لمعجم العين وهذه النظرية قائمة على حساب كل احتمالات التبدل في الحركات والسكنات (1) فإذا كانت الحروف لا تعدو أن تكون ساكنا أو متحركا، فإما أن يتكرر كل منهما عددا لا متناهيا من المرات أو يجتمعا معا وهذا ينتج عدد محدودا من الاحتمالات.

(/0-0/-//0-/0/-0//-/0-0/ ... إلخ).

أخذ الخليل من هذه الاحتمالات ما وجده موافقا لإيقاع الشعر العربي.

2- اعتماده على الاستقراء ثم التصنيف إذ لا شك أن الخليل قام بعملية استقراء واسعة للشعر العربي ثم جمع المعطيات التي أدى به إليها استقراؤه لاستخراج القواعد معتمدا طريقة التصنيف الذي يتمثل في عدة مستويات متدرجة : تصنيف الأسباب والأوتاد ثم التفعيلات ثم البحور ثم الدوائر. (8)

3- ثم إن الذي ينعم النظر في خصائص التصور الخليلي لموسيقى الشعر يجد أن الطابع التجريدي للرموز العروضية سواء الخطية أو اللغوية (التفعيلات) يشبه تماما

الطابع التجريدي ... للأعداد أي أن الصفة التمثيلية لفعولن مثلا تعكس عددا لا متناهيا من الوقائع الصوتية كما أن كل عدد في علم الحساب يستطيع أن يمثل عددا لا متناهيا من الموجودات في الواقع.

أما عن تطبيق أسلوب الإحصاء في التحليل النصي فتجدر الإشارة إلى أن العقدين الأخيرين من القرن الماضي سجلا نزوعا ملموسا إلى توظيف الإحصاء في التحليل إما توظيفا جزئيا أو باتخاذه أساسا للدراسة ومن مجموع هذه الدراسات التي يمكن الإشادة بها والتي تبنى أصحابها أسلوب الإحصاء في إطار التحليل النصي الموضوعاتي دراسة عبد الكريم حسن " البنيوية الموضوعية" (9) حيث قام بدراسة شعر بدر شاكر السياب اعتمادا على الرصد الإحصائي، ثم دراسة الأستاذ إبراهيم المزدالي حول أدب الصفرية والأباضية حيث قام بدراسة مجموع المتن الشعري لهاتين الطائفتين، وهي دراسة تحليلية سياقية للوحدات المركزية الدالة على الموضوعات الكبرى في مجموع المتن الشعري، وذلك اعتماد على ما اقترحته العملية الإحصائية والتي تحتكم إلى الدال الرقمي في توجيه دفة التحليل النصي.

أما الغربيون فنجد لديهم في هذا المجال دراسات رائدة أشهرها دراسة " فلاديمير بروب " للحكايات الشعبية في جمهوريات البلطيق حيث قام بإحصاء مجموع الوظائف الحكائية في تلك الحكايات الشعبية ليخرج بحصيلة واحد وثلاثين وظيفة خلص إلى أنها توحد تلك الحكايات وأن تواردها وتكرارها يكاد يكون اطراديا. (10)

واعتمد الناقد الفرنسي " جان بيير ريشار " في دراساته الموضوعاتية على مبدإ " الإطرادية " أي التوارد والتكرار كأحد أهم مقومات العمل الاحصائي في النص الأدبي

وذلك من خلال دراسته للموضوعات المحورية في أعمال مجموعة من الشعراء الفرنسيين كما لارميه (11) ورامبو وفرلين. (12)

إن العمل الإحصائي في الحقل الأدبي متعدد الأساليب وإن كنا لا نستطيع إلى حد الآن تصنيفه إلى مدارس واضحة ومع ذلك فإن مرونته تجعل بالإمكان تطبيقه على مختلف المكونات النصية : الأسلوبية واللغوية أو الموضوعات المحورية، كما قد يطبق على مستويات أدنى كالمقومات الفونيتيكية ...

ومع أن العمل الإحصائي في حقل الأدب يقر بالقيم العددية مما يهيئ رصيدا من المعطيات التي تعزز القناعات الذاتية للدارس أو المحلل في الخلوص إلى نتائج من وحي النص، فإنه من الضروري تسليط الضوء على بعض الإشكاليات التي يمكن صياغتها في شكل أسئلة :

هل يقف العمل الإحصائي عند حدود تقرير الواقعية النصية أي تكريس النص كواقع مكتوب ؟ أم أنه يتعدى ذلك إلى ممارسة نوع من الضبط والصرامة على الأثر الإبداعي ؟.

وقد يعطي الإحصاء انطباعا بأنه يترجم النص إلى لغة ثانية تتداول المعطى الرقمي أي أنه يغدو " فعل قراءة " تبقى في حدود البعد الكمي لا تتجاوز ظاهره كما أن الاقتصار على الأسلوب الإحصائي يحكم علاقة الدارس بالنص بنوع من الميكانيكة أو الشرطية كما أن طبيعته الحسابية الجافة تنأى بالدارس عن عمق وأصالة التجربة.

لكن مع ذلك فالإحصاء يمكن أن ينعتق من واقعية الكتابة وظاهرها لأن المعطيات الرقمية التي يقدمها ليست مفرغة من الدلالة بل تنطوي على مؤشرات دالة تمتد إلى روح النص، ولتحقيق ذلك يحتاج إلى جهد تكميلي من لدن المحصي يتمثل في القدرة على تأويل المعطيات الرقمية في شكل قراءة جديدة.

وبالوقوف عند القدرة على التأويل لابد أن نسجل بأن هذه القدرة تتطلب رصيدا واسعا من حس الملاحظة وقراءة رموز المادة المحصاة ودراية بتركيب المعطيات المختلفة والمتضادة أحيانا.

ونحن واجدون على مستوى تحليل النصوص في الدرس الجامعي أن كفاءة الطالب غالبا ما تتوقف عند حدود ما هو آلي لنلاحظ بأن بضاعته في قراءة المعطيات وتأويلها محدودة، وهو الجانب الذي ينبغي تكوين مهارات الطالب فيه وإلا فإن تحليل النص الشعري غالبا ما نجد فيه خلاصات ميتافيزيقية لا رابط فيها بين المعطى والاستنتاج ؛ كأن يجد الطالب في هيمنة حرف الراء إحساسا بالمرارة لدى صاحب القصيدة، ولا يخفى ما في تكرار حرف الراء في لفظة " مرارة " من إيحاء زائف بمعنى غير موجود في النص بالضرورة، والغرابة في مثل هذا أن الطالب ينتقل مباشرة من حقائق الإحصاء الدقيقة والصارمة إلى إيهامات دلالية للأصوات تؤدي إلى نتائج غير صحيحة وإلا فإن ما تدل عليه هيمنة الراء من مرارة قد يؤول أيضا بالسرور ما دامت هذه الكلمة تتضمن رائين أيضا.

الهوامش

1. الدكتور إبراهيم المزدالي ــ أدب الصفرية والإباضية من سنة 64 هـ إلى نهاية القرن الثاني الهجري ــ كلية الآداب عين الشق الدار البيضاء ــ 117/1.
2. عبد العزيز فهمي هيكل ــ طرق التحليل الإحصائي ــ ص 36 ــ دار النهضة العربية بيروت.
3. سعد مصلوح ــ الأسلوب : دراسة لغوية إحصائية ــ ص 87 ــ دار البحوث العلمية ــ 1980.
4. محمد طارق الكاتب ــ موازين الشعر العربي باستعمال الأرقام الثنائية ــ البصرة 1971
5. كمال أبو ديب ــ في البنية الإيقاعية للشعر العربي : نحو جذري لعروض الخليل ومقدمة في علم الإيقاع المقارن ــ دار العلم لملايين ــ طبقة ثانية بيروت ــ 1981.
6. أحمد مستجير ــ في بحور الشعر ، الأدلة الرقمية لبحور الشعر العربي ــ القاهرة ــ مكتبة غريب ــ 1977.
7. رشدي راشد ــ تاريخ الرياضيات العربية بين الجبر والحساب ــ ترجمة حسين زين الدين ــ مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت 1989.
8. محمد فوزي ــ القافية في الشعر العربي : دراسة في التقعيد والإبداع ــ كلية الآداب الجديدة . اع : 159.
9. عبد الكريم حسن ــ البنيوية الموضوعية في شعر السياب ــ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ــ بيروت ــ 1963.
10. صلاح فضل ــ نظرية البنائية في النقد الأدبي ــ ص : 87-88-89، دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ــ طبعة ثالثة ــ 1985.

1- L'UNIVERS IMAGINAIRE DE MALLARME – JEAN PIERRE RICHARD-ED : SEUIL – 1956.

2- POESIE ET PROFONDEUR – JEAN – PIERRE RICHARD – ED : SEUIL – 1955.